مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 5

مقابلات

حوار مع عبد الرحمن منيف
عن العراق وفلسطين وهموم الرواية

أجرى الحوار: **ماهر جرّار***

من الصعب التقديم للدكتور عبد الرحمن منيف؛ فهو متعدد الجوانب، يجمع أكثر من أرومة عربية الجذور – نجْد من ناحية الأب والعراق من ناحية الأم – يختلط فيها العشائري بالمديني الحواضري. كما تصعب الإحاطة بإنتاجه المتنوع، وبغزارة هذا الإنتاج: دكتوراه في اقتصاد النفط. وكَتَب الكثير عن دور الأنظمة النفطية الكارثي في إدارة سياسات النفط، وعن رهنها لمجتمعاتها في يد الاستعمار، وعن تغييب رأس المال النفطي عن سياسات التنمية والتحديث؛ حزبي سابق، انتخب عضواً في القيادة القومية لحزب البعث في أوائل الستينات، وروائي عربي كبير من المجدِّدين في الرواية العربية، ومثقف ملتزم، صاحب موقف نقدي نظري وموقف حياتي، صارم في التصدي للمؤسسات الحاكمة، وفي ممارساته.

من عمّان إلى بغداد ودمشق وبيروت وباريس، ثم دمشق مجدداً في الأعوام الخمسة عشر الأخيرة. قصدنا بيته في دمشق لشعورنا بأننا نقف أمام مفترقات ومهاوٍ، لنحاول أن نتلمس معه، ومن خلال تجربته السياسية والفكرية الغزيرة، توصيفاً للمآزق والإخفاقات التي تتخبط فيها أنظمتنا ومجتمعاتنا.

قصدناه وفي جعبتنا كمٌّ من الأسئلة عن بلد، اسمه العراق، أخَذَ يبدو مجهولاً لنا؛ وفي جعبتنا أسئلة فلسطين وجروحها التي تنزف بسخاء؛ وهذا الاستعمار الإمبريالي الجديد الذي يعيد رسم خريطة العالم انطلاقاً من الشرق؛ وأسئلة عن حياته والمدن التي أقام بها، والمثقفين ودورهم، وهموم الرواية العربية.

حاورناه في أواخر السنة الماضية وأوائل السنة الحالية، على امتداد ثلاث جلسات، عقدت الأولى في 2003/10/11، والثانية في 2003/10/25، والثالثة في 2004/1/5، منطلقين من معرفته الأصيلة والعميقة بالعراق وناسه ومثقفيه، واتفقنا على أن نستكمل الحوار في أوائل شباط/فبراير 2004 لأن لديه، كما قال لنا، الكثير بعد مما يرغب في قوله. وأخّر اشتداد المرض عليه موعدنا معه، وسبقنا القدر إليه، وحمله إلى عالم الغيب والشهادة، تاركاً شهادته على ما يجري في العراق في الحوار السياسي الأخير له، الذي ننشر فيما يلي

* أستاذ مشارك في دائرتي الدراسات الحضارية والأدب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت.

مقتطفات وافية منه. نقول: وداعاً عبد الرحمن منيف، وشـكراً، وأنت باق بيننا فيما تركته من عطاء.■

عبد الرحمن منيف

1933: *ولد في عمّان.*

1952 *(حزيران/يونيو): أنهى الثانوية العامة في عمّان. وفي أثناء الدراسة الثانوية ` انتسب إلى حزب البعث.*

1952 – 1955: *بغداد، لدراسة الحقوق.*

1955 – 1958: *القاهرة، إنهاء الدراسة في الحقوق.*

1958: *يعود إلى بغداد لبضعة أشهر، ثم يغادر إلى يوغسلافيا بمنحة من حزب البعث لدراسة الاقتصاد.*

1958 – 1961: *يوغسلافيا.*

1961 – 1962: *بيروت (متفرّغ في القيادة القومية في الحزب).*

1962 *(أيار/مايو): مؤتمر حزب البعث في حمص، وخروجه من الحزب.*

1963: *بغداد لبضعة أشهر.*

1963 – 1973: *دمشق (ابتداءً من سنة 1964 عمل في وزارة النفط).*

1973 – 1975: *بيروت (عمل في الصحافة، مجلة "البلاغ").*

1975 – 1981: *بغداد (عمل في مكتب الشؤون الاقتصادية في مجلس قيادة الثورة).*

1981 – 1988: *باريس (كاتب متفرغ).*

1988: *دمشق مجدداً.*

2004 *(24 كانون الثاني/يناير): توفي في دمشق.*

أرض السواد وعراق اليوم

[.....]

■ **في روايتك "ثلاثية أرض السـواد" عالجت مرحلة مفصـلية مهمة من تاريخ العراق. فقد كان لداود باشـا، الشـخصـية الرئيسـية في الرواية، مشـروع يماثل مشـروع محمد علي في مصـر. وهو من أوائل من حاول أن يوطن القسـم الأكبر من العشـائر العراقية، كما اعتنى بإصـلاح القنوات، وزيادة الرقعة المزروعة، وتغيير طبيعة الملكية. فهو كان يؤسـس لبناء دولة عراقية حديثة.**

□ كان الإمسـاك بالموضـوع باعثاً على الحيرة والتحدي، وكان في ذهني شـخصـيتان أسـاسـيتان هما: داود باشـا (1817 – 1831) ومدحت باشـا (1869 – 1871)، والأخير

كان رائد الدستور والإصلاحات في إستانبول وجاء إلى سورية والعراق، وكان صاحب مشروع متنور ومتقدم. هنا لا بد من الالتفات إلى أهمية دور الزمن في الرواية، وإلى مفهومه بالنسبة إلى الإنسان. فمرحلة داود باشا شهدت إعادة ترتيب العالم: نابليون كان أنهى مغامراته الكبرى؛ بريطانيا كانت تمثّل إمبراطورية في مرحلة متقدمة تتوسع بشكل مذهل. وكانت بريطانيا أنشأت في منطقتنا حاميات وموانئ على طريق الهند، التي غدت جوهرة التاج البريطاني. كان ثمة إمكانات كبيرة تنفتح أمام داود باشا.

[.....]

■ إلى أي حد يمكن مقارنة مشروع داود باشا بالمشروع "القومي الحديث"، علماً بأن المشروع القومي فشل في إنجاز دولة؟

□ كما ذكرت، كان محمد علي هو مَثَل داود باشا. فقد أسس داود باشا جيشاً ساهم فيه عدد من ضباط نابليون، وأنشأ معامل نسيج لتلبية حاجات الجيش بالدرجة الأولى، واهتم بموضوع المياه وشق الترع، وكان التواصل مع أوروبا والانفتاح عليها من جملة همومه، كما حاول أن يجد منافذ إلى البحر غير ميناء البصرة – الذي كان مهدداً من الأسطول العُماني؛ ونذكر كذلك مشروعه لتوطين القبائل، واهتمامه بالتعليم. غير أن لمصر شروطاً مختلفة عن شروط العراق؛ فمصر محمية من ناحية الصحراء ومطلة من جهة ثانية على المتوسط، وهذا عامل مهم. ثم إن مفهوم الدولة والعلاقات المرتبطة بجهة مركزية أمور غير موجودة في العراق منذ القدم. وتحسن المقارنة هنا مع مصر: فمما يلفت النظر أن الدولة المركزية ضرورة قصوى بالنسبة إلى مصر، والعنصر الأهم هو التحكم في النيل وفي توزيع مياهه. هذه العوامل جميعها أدت إلى إنشاء دولة مركزية في مصر منذ أقدم العصور؛ فالفرعون المصري يعتمد نجاحُ حكمه على مدى سيطرته على موضوع المياه وتوزيعها. ونلاحظ أن المصلحين في تاريخ مصر القديم والحديث أَولَوْا، في معظمهم، هذا الموضوع اهتماماً رئيسياً. ثم إن الفلاح المصري يعتمد على الطمي المتشكل نتيجة فيضان النيل. أمّا في العراق، فالأمر على العكس من ذلك، إذ إن العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة متوترة، ولها خصوصية تجعلها مختلفة عما هي عليه في أماكن أُخرى. المناخ في العراق أعجب من أي بلد آخر: فالبرد قارس شتاء، والصيف شديد الحرارة يكاد يشل إرادة الإنسان وقدراته. ثم يأتي الفيضان؛ فما يكاد الفلاح يستصلح جزءاً من الأرض وينقيه من الملوحة حتى يأتي الفيضان في آذار/مارس ونيسان/أبريل، أوان نضوج الزرع مبشّراً بمواسم وفيرة، ليحصد كل شيء ويجرف التربة والزرع والضرع والبيوت. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة في العراق ليست علاقة ودية على الإطلاق، إنما قائمة على الحذر والتوتر.

الرسم للفنان فادي البازجي، سورية

أمّا بالنسبة إلى الشق الثاني من السؤال، فلا شك في أن العراق دولة ذات موقع مميز وإمكانات ضخمة، الأمر الذي كان يهيئه للقيام بدور مهم في المنطقة، ولأن يكون في مقدم من يقود السياسات العربية ويقررها. وبمجيء الحكم الهاشمي إلى العراق أصبحت إنكلترا هي التي تحدد السياسات وتفرض المشاريع وتتصرف باسم العراق، وهو ما أحدث فجوة بين العراق ومحيطه. وعندما أُعلن حلف بغداد، كان يُظن أن العراق هو مجرد بداية ولا بد من أن يلتحق به معظم الدول العربية. غير أن هذا النموذج بمقدار ما كان مهيَّأً للتعميم، غدا هو السبب لسقوط النظام. ويمكن أن تقاس هاتان الحالتان بحالات أُخرى؛ بمعنى البحث في مدى قدرة حاضنة معينة على احتمال عبء ثقيل يؤدي إلى أعباء إضافية لا يحتملها الوضع الداخلي. والنقطة الثانية المهمة تتمثل في العلاقات الملتبسة والمتوترة بين العراق وإيران. فهذه العلاقات هي في حال من التجاذب المستمر، وهي دائماً عرضة للانفجار وللمفاجآت، وخصوصاً في موضوع "شط العرب". وقد مر موضوع اقتسام مياه شط العرب بعدة مراحل وفق موازين القوى؛ ولذلك لم يكن مستغرباً أن ينفجر الوضع بسبب التدخلات الخارجية، خاصة، ولطموح صدام حسين الإمبراطوري. ولو كان الحكم أعقل وأبعد نظراً لكان في إمكانه إيجاد قواسم مشتركة.

■ **تقول عن بغداد، في دراستك عن المدينة العربية في "نقطة ضوء" (2001)، إنها واقعة "تحت تأثير العلاقات غير المدينية لأنها امتداد للأرياف والبلدات المحيطة بها"، وتُعدِّد عوامل أُخرى تجعل من بغداد "عبارة عن تجمعات متجاورة أكثر مما هي مدينة قادرة على استقبال الكثيرين ثم إعادة خلقهم ضمن منطقها وعلاقاتها كما تفعل المدن الكبيرة في أوروبا" (ص 32، 33). فهل نجحت أنظمة الحكم المتعاقبة في العراق في بناء دولة؟ يرى حنا بطاطو إلى "أن العراق كان يتألف في ظل الحكم العثماني – وإلى حد غير ضئيل – من مجتمعات متمايزة، مهتمة بذاتها، وذات روابط متبادلة واهنة" ("العراق"، 22/1)؛ وأنه في "مطلع القرن الحالي، لم يكن العراقيون شعباً واحداً أو جماعة سياسية واحدة** (one political community)**"، ويعدد الأقليات، ويضيف: "فالعرب أنفسهم الذين يؤلفون أكثرية سكان العراق كانوا يتشكلون إلى حد بعيد من جملة من المجتمعات المتمايزة والمختلفة فيما بينها والمنغلقة على الذات** in a large measure a congeries of (discordant, self-involved societies distinct,)**، بالرغم من تمتعهم بسمات مشتركة" ("العراق"، 31/1). "كان هناك هوة واسعة تفصل المدن عن المناطق العشائرية." فماذا عن التركيب العراقي والديني في العراق الذي عرفته، وفي عراق اليوم؟ أنت تابعت الموضوع عبر دراسات معمقة في أثناء تحضيرك لـ "أرض السواد"، كما يتجلّى من كتابك الجديد عن "العراق"؟**

□ نجد أن طبيعة المدن في شمال العراق وجنوبه طبيعة هشة؛ فالمدن يعاد تشكيلها وإشادتها كل خمسين عاماً مرة. حتى الفن العراقي هو فن المنمنمات أكثر منه فن

الأهرامات الضخمة. ففي العراق عندما تفقد الدولة المركزية سيطرتها تتكون مجموعة من الدول. ولا ننسى أن المجتمعات تقوم على المواصلات بالدرجة الأولى، وعلى التبادل التجاري والتعليم ومجموعة من العناصر الأُخرى. في تصوري أن العناصر الأولى متوفرة لكنها بحاجة إلى رعاية وتنمية. بمعنى آخر: يجب أن يشعر أبناء مختلف المناطق بأن العناية بأحوالهم وهمومهم وهواجسهم لا تقل عن العناية بالمركز. المشكلة بالنسبة إلى المنطقة العربية هي أن المدينة، وخصوصاً العاصمة، غدت مثل البالون الذي ينتفخ على حساب المناطق الأُخرى. فانظر إلى أي عاصمة عربية ترى أن ثلث سكان البلد على الأقل يتمركز فيها، الأمر الذي يؤدي إلى تخلخل في التوزع السكاني. ومن الطبيعي أن ترتبط هذه الظاهرة بإهمال الأرياف والبوادي، وبطبيعة توزيع فرص العمل والتغيير الاجتماعي. لنأخذ مدينة حلب مثالاً؛ فقد كانت هي مدينة التجارة في العصور الوسطى المتأخرة، وكان طريق الحرير يمر بها، وتتفرع طرقاتها إلى إستانبول والمتوسط وعالمه، حتى نوعية الأكل والملبس والطرب والسلوك كانت أكثر رخاء منها في دمشق، مثلاً. ثم تغير الوضع بتأثير عوامل كثيرة. اليوم في كثير من الأحيان تصل الجريدة إلى حلب متأخرة يوماً، بينما في مصر – مثلاً – ومنذ وقت مبكر، كان ثمة قطار الصحافة؛ فـ "الأهرام" تطبع أربع أو خمس طبعات، الأولى الساعة الثانية عشرة ليلاً، وتُرسل فوراً إلى أسوان وأسيوط وغيرهما من المدن.

ثم إن حجم الانصهار الاجتماعي ومستوياته تتفاوت بين شعب وآخر تبعاً للمرحلة وللجهود التي تُبذل من أجل تفعيل هذا الدمج واختصار الفوارق. فالدولة فكرة حديثة في بلادنا، ولم نجد لها نموذجاً متجسداً يمكن الانطلاق منه لتطويرها. فظلت المسألة مرتبطة بعناصرها الأولى، بمعنى أنْ لا تصبح الدولة هي العنصر الطاغي. وفي ظل هذه النقائض والتوازنات برز دور الحاكم، فغدا هو من يحدد ملامح التطور المحتمل للبلد. وقد رأينا كيف حوّلت جماعة تكريت، أحمد حسن البكر وصدام حسين، اتجاه تطور الدولة العام نحو الاهتمام بمناطق معينة. والأمر نفسه جرى في الحركة الكردية، فتجد أن الأماكن التي انحدر منها الزعماء هي التي تحدد موازين القوى وإمكانات التطور ووجوهه. منذ عهود متتالية غدا صاحب السلطان والنفوذ في العالم العربي يطبع الدولة بطابعه، فإذا سقط يستوي بسقوطه سقوط منطقه.

■ كيف ترى إلى ماهية الهوية/الهويات العراقية، وهل يمكن الحديث عن هوية عراقية أو انتماء عراقي موحد؟ وهل كان لمشروع داود باشا وإصلاحاته دور في خلق هوية عراقية حديثة؟

□ لا ننسى أن جزءاً من النسيج الاجتماعي في العراق قائم على العلاقات العشائرية، ولم يُقدَّم منذ ألف عام أي بديل مقنع لانصهار اجتماعي جديد. فما زالت علاقات النخوة تشكل أساساً مهماً، يعني إذا ضيم أحدهم من شمّر، أو وقع بمأزق، فهو ينتخي وتضطر العشيرة

إلى أن تحميه، حتى لو كان الأمر مخالفاً لقناعاتها. هذه العلاقات تشكل نوعاً من الهوية أو الانتماء المتميز. ولا ننسى أنه كان للآخر دور في تغذية انتماءات معينة.

■ **الآخر، من؟**

□ تركيا، مثلاً، كانت تُدلل السُـنّة في فترة من الزمن، وتُغدق عليهم الإقطاعات والمراكز الحساسة. وفي مرحلة أُخرى، عندما يطغى النفوذ الإيراني، كان الشيعة وكثيرون من زعماء القبائل الشـيعية يتمتعون بالامتيازات. ونلاحظ أن بغداد في الأعوام الخمسـين الأخيرة أخذت تؤدي دوراً مهماً في عملية الصهر الاجتماعي، وفي بلورة هوية عراقية جديدة. إذ إنه نتيجة التقدم الذي حدث في حقلي التعليم والاقتصـاد جرت عملية إعادة صـهر وتقويم ودمج في عدد من القطاعات. فبغداد اليوم مدينة مختلطة إلى حد كبير: أكراد ومسـيحيون وسُـنّة وشـيعة. وبينما كانت التجمعات السـكانية ذات طابع ريفي أو قبلي في البداية، أصـبحت في هذه المرحلة تابعة للنقابات، فصـرت تجد أحياء للمهندسـين أو المعلمين أو الأطباء أو الشـرطة، إلخ. هذا التبديل في طبيعة العلاقات الاقتصـادية والاجتماعية فعّل عملية الدمج.

■ **هل يختلف الوضع في مناطق الجنوب الشيعية، ذلك لوجود أهم المراكز الدينية الشيعية وازدهار الحوزات العلمية والتواصل المذهبي والثقافي مع جبل عامل وإيران؟**

□ الشـيعة عبر تاريخهم الطويل كانوا يشـكلون عنصـر المعارضـة الأسـاسـي عبر مئات الأعوام، والمعارضـة كي تبقى متماسـكة وقادرة على الدفاع عن نفسـها لا بد من أن تعتمد تراثاً فكرياً وأدبياً وشـعائرياً من نمط معين. ثم إن المجتمع الشـيعي، بحوزاته وأماكنه المقدسـة، مجتمع علم على الطريقة التقليدية، وللحوزات دور في صـهر العناصـر المتعددة. وهذه المناطق تتمتع برصـيد ثقافي كبير. وكما يُقال: إن المرء في النجف إذا أراد شـراء بندورة يسـتخدم الشـعر في ذلك، وهذا نصـيب من رأس المال الثقافي، أعني كيف تخاطب الآخر وتقنعه وتكسـبه إلى جانبك بالحجة والبرهان. لكن من الطبيعي أن هذه الشـخصـية الثقافية المتميزة لم تصل إلى حد بلورة هوية خاصة. فـ "التشيّع"، إذا صح التعبير، جزء من مكونات الشـخصـية، وبالتالي نلاحظ أن علاقة شـيعة العراق بشـيعة إيران علاقة ملتبسـة وعرضـة لبعض الاهتزازات، وخصـوصـاً فيما يتعلق بالمرجعيات ودور الحوزات في النجف وقمّ، وإلى حد ما في سامراء.

الاحتلال الأميركي أغبى الاحتلالات

■ **هل كانت روايتك "ثلاثية أرض السواد" تستشرف الرعب الاستعماري الجديد القادم إلى العراق بكل جبروته؟**

□ عندي قناعة بأن هذه الموجة لا بد من أن تنكسر وتنحسر. ربما كان الاحتلال الأميركي اليوم من أغبى الاحتلالات؛ فهو يقوم على صـورة وهمية للآخر، بما فيه العراق. الاحتلال

الإنكليزي في مطلع القرن عانى في البداية معاناة كبيرة خلال احتلال العراق؛ ولا ننسى أنه رسخ أقدامه عبر فترة زمنية طويلة جداً، وعلى شكل تسلل أكثر منه اقتحام، كما ربط نفسه بشبكة من المصالح المادية وبالقوى الموجودة على الأرض. وتم ربط ميناء البصرة بالهند. ولعل علاقات البصرة بالهند، في ذلك الوقت، كانت أقوى من علاقاتها ببغداد. الإنكليز بسبب خبرتهم الاستعمارية الطويلة هم أكثر خبرة وأكثر دراية بالتعامل مع الأمور. أمّا الأميركيون فإنهم نتيجة الغطرسة والخوف وعدم التحسب لمعرفة ردة فعل الآخرين يبدون كأنهم يسيرون في الظلام، يتخبطون ولا يتحكمون في ردات فعلهم، أحياناً. ولا ننسى أن العراقيين يتمتعون بحس عال من الانفعال، وتأتي ردات فعلهم قوية؛ أحياناً خلال ساعات ينقلب مزاج العراقي مهما تكن تعرفه وتطمئن إليه فيصبح كالإعصار.

■ **ألا تعتقد أن هذا التحالف الدولي وأطراف المعارضة العراقية، بمختلف تلويناتها، أزاحت عن صدور العراقيين كابوس صدام حسين وحزب البعث، وأحدثت خلخلة في أنظمة المنطقة الجاثمة على شعوبها كالديناصورات!**

□ لا أتفق معك نهائياً؛ وكان المرء يتمنى لو جرى التغيير عن طريق القوى الوطنية.

■ **هل كان يمكن إحداث تغييرات في النظام عن طريق "المعارضة الوطنية"؟**

□ أعتقد أنه حدثت متغيرات كثيرة في العالم في العقد الأخير: سقوط الاتحاد السوفياتي وما تلاه من تغيرات كبرى في أوروبا الوسطى، وهذا الارتجاج الذي يجري في العالم، والذي يمكن تشبيهه بموجة من الاهتزازات الارتدادية. للأسف لم تحسن المعارضات الوطنية الاستفادة من هذه المتغيرات ومن التغير في المزاج العالمي، فما كان ثابتاً ومستقراً لم يعد كذلك. وأنا أرى أن المعارضة العراقية في الخارج أصابتها تشويهات كثيرة وبشعة، إذ ارتمت في أحضان أجهزة الاستخبارات ومراكز الدراسات المرتبطة بالدوائر الكبرى في الدول الرأسمالية، ووجدت هناك أبواباً للارتزاق.

■ **هل ينسحب كلامك هذا على مختلف أطياف المعارضة وتوجهاتها؟**

□ بصورة عامة نعم. طبيعي أن يكون لكل حالة تفصيلات، لكن بوجه الإجمال هذه المعارضة لا تليق بالعراق من ناحية التوجه، ولا تستطيع أن تكون البديل المناسب.

■ **هل ثمة بدائل أُخرى في الداخل؟**

□ أعتقد أننا ما زلنا في حالة مخاض، ولم تكتسب الأوضاع المستجدة في العراق ملامح واضحة بعد بحيث نميز الصيغ البديلة. من الواضح أن مجلس الحكم موقّت ولا يملك صلاحيات، هذا إلى جانب التباين الكبير بين أعضائه فيما يخص عدد كثير من الأمور المهمة والملحة. أنا لست من أولئك الذين يرون أن الأميركيين "يجب أن يُشكروا"؛ فالدولة والمؤسسات الأميركية مدفوعة بطموحات إمبراطورية كبرى، وهي تخطط منذ سقوط الاتحاد السوفياتي لإعادة تشكيل العالم وفق مصالحها ورغباتها؛ وذلك، حتى، قبل 11

أيلول/سبتمبر 2001.

■ **أليس ثمة إيجابيات في الوضع الجديد يمكن الاستفادة منها لوضع ميثاق أو عقد اجتماعي جديد؟ لقد فُسح المجال الآن أمام الأكثرية الشيعية، وأمام الأكراد الذين تعرضوا لأبشع أنواع القمع والإبادة، وأمام الأقليات المتنوعة، لتوصل صوتها ورؤيتها وتطالب بحقوقها وتعبر عن طموحاتها من خلال منظومات جديدة تختلف عما هو سائد منذ النصف الثاني من القرن المنصرم من منظومة "قومية عربية" شوفينية وصلت بالمنطقة وبـ "شرق المتوسط" إلى نهايات مأساوية ومسدودة؟**

□ لعله مجرد احتمال أن يكون ثمة فرص أكبر أمام هذه القوى التي حددتها. أولاً، هذه الفرص ليست مضمونة؛ ثانياً، لا أجدني متفائلاً بمستقبل الحركة الكردية. هناك إشكالات كبيرة فيما يتعلق بطموح الأكراد وبدورهم في العراق، وخصوصاً أن موضوع تركيا مهم وحساس إلى أبعد حد فيما يتعلق بمستقبل المنطقة الشمالية. ولا أتصور إمكانات جدية تؤدي إلى الوصول إلى تفاهم، أو إلى نوع معين من الصيغة الإيجابية المرضية للجميع. ولعل منطقة الشمال والعلاقات الكردية – التركية هي أمام منعطفات امتحان عسير. ولا ننسى موضوع الموصل وكركوك، وهو من الأمور التي يمكن لتركيا أن تثيرها في أي وقت للتدخل بحجة حماية التركمان، وبأن الموصل أُلحقت بالعراق عبر صفقة سياسية.

■ **والشيعة؟**

□ لا شك في أن الشيعة كانوا مغبونين فترة طويلة من الزمن، وقد بدأوا يستعيدون جزءاً من حقوقهم. غير أنه يجب ألاّ ننسى أن العلاقات بين أركان الوضع في العراق قابلة للتبدل والتغيير تبعاً لعوامل كثيرة. فالمسألة لا تنحصر بالكثافة السكانية وحدها، بل أيضاً بنوع العلاقات المرغوب فيها والممكنة في آن واحد. في العصر الحديث، ومنذ حكومة فيصل الأول، أُقيمت دولة سُنّية غُبن فيها الشيعة. وقد حاولوا إقامة نوع من التوازن عبر الاقتصاد، إذ إنهم حين حُرموا مناصب الحكم وقيادات الجيش لجأوا إلى التجارة والاقتصاد؛ فقد كان الشيعة يسيطرون على الأسواق الداخلية فترة طويلة، وحتى على جزء من التجارة الخارجية، بعد أن أخذ اليهود بالهجرة، وكذلك بعض المسيحيين الذين كانوا وكلاء للشركات والمنتوجات الأجنبية.

■ **ماذا عن الدستور العراقي الجديد في قيد التحضير: هل تعتقد أنه يمكن بلورة صيغ دستورية قد تكون متقدمة بالنسبة إلى الدساتير العربية عامة؟**

□ يبدو أنهم لم يستطيعوا التوصل إلى معادلة يمكن البدء منها في الطريق الطبيعي. كان من الأفضل أن يُجرى استفتاء، أو أن يُدعى إلى انتخابات لتأليف لجنة لوضع الدستور مع مراعاة سائر الحساسيات والاحتمالات. غير أن الصيغة الملتبسة السائدة الآن ستؤدي إلى تأخير بت الدستور، وإلى تجاذبات كبيرة في موضوع هوية الدولة: هل تكون "إسلامية"، أم أنها تستمد أحكامها من الشرع، أم أنها يجب أن تكون دولة علمانية (أو على حواف

العلمانية).

■ **تبقى مسألة مركزية الدولة، أو الأخذ بمفهوم فدرالي أو كونفدرالي.**

□ حتى موضوع الفدرالية غير محدد حتى الآن؛ أيّ فدرالية: جغرافية، أم عرقية، أم مذهبية؟ ولعل نوع الفدرالية أو الكونفدرالية، من ناحية المضمون، هو ما يحدد طبيعة قبولها وتَمثُّلها. فثمة بعض الفدراليات التي تعتمد المناطق الجغرافية أساساً وليس الإثنية والمذهب؛ ربما يمكننا أن نستقرئ هذا النموذج كحل مناسب إذا أُحسن صوغه وأُحسن تطبيقه بمرونة عالية. فلا يمكن تطبيق الفدرالية في منطقة معينة من دون مناطق أُخرى كما كان الحال في العراق لفترة معينة؛ كأنْ تسمح الدولة المركزية بهامش معين لامركزي في الشمال بينما لا تطبق هذه اللامركزية في مناطق أُخرى. فمن الصعب أن تقوم ديمقراطية في العراق إذا كانت الأغلبية محرومة من الديمقراطية. حتى لو افترضنا وجود قوميتين فقط، القومية الكردية والقومية العربية، يبقى هناك كمٌّ من الهويات والإشكالات التي يجب أن نجد لها حلولاً ضمن كل منطقة قومية: كيف سيكون، مثلاً، وضع الكلدان والسريان والأشوريين والتركمان، وكذلك الأقليات العربية في شمال العراق؟ وفي المقابل لن يكون الشيعة راضين عن أن تكون الفدرالية محصورة في منطقة واحدة فحسب وأن يُحرم سائر المناطق منها. أعتقد أن التقسيم، أو اللامركزية، يجب أن يكون في إطار مؤسسات الدولة لا في الاستناد إلى مقومات يحاولون اليوم تكبيرها، أو حتى اختراعها.

■ **أرانا نعود إلى مسألة الهوية. كأننا نحاول اختراع هوية عراقية؛ كأننا نقول إنه لم يكن هناك فعلاً هوية عراقية واضحة – وهذا أمر طبيعي في نظري – وإن الهوية العراقية المركبة كانت وما زالت في قيد المراجعة والتشكيل، وهذا غير ما كان يقول به حزب البعث والاتجاهات القومية العربية.**

□ والعكس صحيح أيضاً. كان هناك هويات في طور التكوين والنمو، لكنها لم تُعطَ الفرص الكافية لتعبر عن أنفسها. يعني، مثلاً، أعتقد أن أكثر منطقة أُعطيت فيها حقوق للأكراد هي المنطقة العراقية، قياساً بتركيا وإيران وأماكن أُخرى، حيث كان من الممكن تكوين نواة لتعايش طويل الأمد وأن يجري نوع من التوافق.

■ **لقد ضرب حزب البعث هذه الإمكانات بالأسلحة الكيماوية والحرائق والجرائم الجماعية!**

□ يجب ألاّ ننسى دور الآخرين كذلك، أعني العلاقات الإسرائيلية – الكردية خلال فترة طويلة نسبياً.

■ **كيف ترى الدعوات إلى الجهاد، وحركات المقاومة العسكرية في العراق اليوم؟ هل يمكن تسمية مقاومات اليوم وتصنيفها؟ لماذا كانت ثورة العشرين التي ابتدأت شيعية في الجنوب والوسط شاملة، وليست المقاومة كذلك اليوم؟ هل يمكن تفسير هذا جزئياً بالعودة إلى حكم صدام حسين ودكتاتورية البعث؟**

□ ثورة العشرين بدأت شيعية ثم صارت ثورة عامة. والتعبير الذي يطلق عليها هو "ثورة وطنية"؛ وهذا صحيح في رأيي، لكن لم يكن هناك توجه منهجي فيما يتعلق بمقاومة الإنكليز. كانت ثورة مناطق، أي أنه كان لكل منطقة قيادتها السياسية وتكوينها الجغرافي الخاص. صحيح أنها بدأت في الجنوب والتحقت بها قوى شيعية من الوسط، لكنها لم تلبث أن امتدت إلى أماكن أُخرى، بما فيها بغداد والفرات الأعلى، ثم امتدت إلى منطقة بعقوبة والخالص، وأفرزت قادة مميزين. وكما ذكرت في مكان آخر، إن من جملة أسباب عدم استمرار ثورة العشرين وتحقيق الأهداف المرجوة منها والنتائج المترتبة عليها أنها كانت في مناطق معزولة، وقد عمل الإنكليز على تجزئة الثورة. فالثورة التي قامت في الوسط ظلت في أغلب الأحيان في الوسط، وعلى الرغم من أن أصداءها وصلت إلى الشمال وبغداد والجنوب فإنها لم تتكامل، ولم يتم التنسيق فيما بينها فظلت كل منطقة تعمل بمفردها وبأساليبها وضمن منطقها الخاص، الأمر الذي أدى إلى الخسارة الحتمية التي لحقت بثورة العشرين ككل. اليوم قسم من المعارضة يدعم الأميركيين، والقسم الآخر منقسم فيما يتعلق بموقفه من الكفاح المسلح. أعتقد أن الجو الشيعي في الوسط والجنوب أخذ يزداد احتقاناً، وخصوصاً لعدم توصل مجلس الحكم إلى صيغة مرضية تحقق نتائج ملموسة على الأرض. وما يعزز هذا التوجه أن طريقة تعامل الأميركيين مع الناس فيها كثير من الغطرسة والجلافة والتخبط وعدم المعرفة. وهم يلجأون إلى أساليب قمعية ادعوا أنهم قدموا لتغييرها: إغلاق الصحف وبعض شبكات الإرسال التلفزية؛ قمع المتظاهرين؛ فتح السجون؛ إطلاق النار العشوائي؛ "كبس" البيوت وترويع الناس؛ إلخ. وهذا بالإضافة إلى استمرار عمليات النهب وخطف النساء والاعتداء عليهن، والفشل في تقديم الخدمات الأولية. هذه العوامل مجتمعة ستؤدي إلى حالة واسعة من الاضطراب الذي يمكن أن يتفاقم نتيجة أسباب متداخلة، وإلى امتداد النقمة الشعبية وظهور ردات فعل عنيفة في أوساط كانت تبدو محايدة وهادئة حتى الآن. اليوم نحن نعيش ما يشبه المرحلة الأولى من ثورة العشرين، والثورة تتسع سواء لناحية الحجم أو لناحية المناطق المشاركة فيها. وأنا أتوقع، في حال بقاء السلوك الأميركي على ما هو عليه، أن تنعكس النتائج على شكل مقاومة أوسع وأكثر ضراوة وتنظيماً.

■ **هل يمكن للعشائر أن تؤدي دوراً وطنياً كما فعلت، مثلاً، في ثورة العشرين؟ أم هل ينجح التحالف الاستعماري في شراء بعض شيوخ العشائر لتشكيل قوات شبيهة بقوات البادية، وهذا ما كان يفعله البريطانيون في العراق والأردن؟ هل هناك دور مرتقب لبعض شيوخ العشائر في قمع المعارضة وضبطها، وخصوصاً بعد إعلان تشكيل مجلس جديد للعشائر مؤلف من ثمانية وثلاثين عضواً؟**

□ العشائر قوة، كانت ولا تزال موجودة منذ وقت طويل. وإذا كانت هذه العشائر قامت بأدوار وطنية خلال فترات معينة فذلك لا يعني أن هذا السلوك دائم ومتكرر. القوى

المتحكمة لها تأثير في سلوك العشائر ومشايخها. غير أن القوى التي حاولت أن تمثل صيغة للدولة أيام حكم صدام حسين لم تستطع أن تلغي المعارضة، على الرغم من أجهزة القمع الممتدة في المجتمع، فمن باب أولى أن تكون العشائر أعجز من أن تقوم بهذه المهمة. من الممكن أن تساعد في ذلك. هذا، وثمة تفاوت كبير في مواقف العشائر، وحتى المشايخ، فيما يتعلق بالنظرة إلى الأجنبي والعلاقة به. ففي المنطقة الغربية، وصولاً إلى الفرات، نجد أن العشائر هي التي تقود المقاومة بالدرجة الأولى. ويمكن ملاحظة الأمر نفسه بين عشائر منطقة ديالا؛ لذا لا يمكن وضع العشائر في سلة واحدة. فإذا أحسنت الحركة الوطنية التعامل مع العشائر وإقامة علاقات تجارية معها، وكانت موضع ثقة وحوار وتفاعل، فإن كثيراً من العوامل السلبية سيتقلص وينحسر. وللأسف، لم تستطع الأنظمة المتعاقبة على حكم العراق، بوجه الإجمال، أن تتعامل مع الحالة العشائرية والمجتمع العشائري بشكل موضوعي لتجد له صيغاً بديلة، كما لم تستطع أن توفر له التعليم والطبابة وغيرهما من الأمور.

الأوضاع مؤاتية لوحدة وطنية

■ **كيف ترى إلى وضع العراق اليوم؟**

□ أعتقد أن الأوضاع مؤاتية الآن، وثمة إمكانات للعمل من أجل تحقيق وحدة وطنية في العراق بين السُنّة والشيعة، وبين الأكراد والعرب، بهدف تحديد مطالب ورسم طريقة للتعامل مع القوى الغازية. فالخريطة السياسية التي أُلغيت خلال الفترة الأخيرة من حكم صدام حسين بدأت تتغير بسرعة، سواء لناحية الأحزاب الجديدة التي بدأت بالتشكل، أو لناحية منابر التعبير التي توفرها الصحافة الجديدة التي ازداد عددها وتنوعت مواقفها. ومما يساهم في إرساء الوحدة الوطنية الداخلية محاولات هذه القوى الجديدة وضع رؤية مشتركة من أجل التصدي لحالة انعدام الأمن والفقر المستفحل في مختلف الأوساط. وهناك ضرورة ملحة اليوم لتقديم نموذج بديل مختلف عن النماذج السابقة، ومختلف عمّا يخطط له الأميركيون. إن الاستفادة من هذه الإمكانات المتاحة اليوم، بالإضافة إلى ضرورتها، هي ما يشكل عصباً أساسياً لعملية الإنقاذ الحقيقي بالنسبة إلى العراق. لعل الوقت لم يسمح بعد ببلورة حقيقية لهذه الإمكانات، إلاّ إن ذلك يتم من خلال التجربة والممارسة والاستمرار والنقد. لقد بدأنا نرى اليوم بوضوح كيف أن الشعار الأميركي المزعوم، الذي يبشر بالديمقراطية من خلال البوابة العراقية، بدأ يتأكل ويتكشف زيفه ويغير طبيعته ليفترّ عن وجوه من القمع والعسف، وعن فرض صيغ فوقية لا تمثل رغبات الناس وتطلعاتهم. هذه الأمور مجتمعة أوجدت مناخاً يمكن الاستفادة منه، وإذا أُحسن التعامل معه ببعد نظر ورحابة قد يفسح المجال للوصول إلى صيغة ديمقراطية مقبولة تتيح للشعب التعبير عن اختياراته، سواء فيما يتعلق بوضع دستور جديد وإجراء انتخابات لاختيار مجلس للنواب،

أو بإيجاد صيغة جديدة لطبيعة العلاقات الجغرافية بين المناطق، أو من أجل التفكير في عقد اجتماعي جديد يعبر عن الطموحات الشعبية والمناخ الوطني العام. وليس ثمة شك في أن هذا الامتحان عسير بالنسبة إلى العراق في المرحلة المقبلة.

■ **هل ما زالت الدولة القطرية قادرة على الاستمرار اليوم، وهل ما زالت الدولة القومية المركزية هي شعار بعضنا ورغبته وهدفه، أم علينا الاتجاه نحو الاختلاف والتعدد والخصوصية ضمن منظومة جيوسياسية جديدة؟ أعني الاعتراف بأن ثمة مجتمعات في العراق وليس مجتمعاً واحداً، وهويات مركبة ومتحولة وليس هوية راسخة لها جذور تاريخية وقومية.**

□ الدولة القطرية هي إفراز القرن العشرين، وتزامنت نشأتها في منطقتنا مع الهجمة الاستعمارية. قبل ذلك كانت الصيغة السياسية والإدارية السائدة تختلف نوعياً وجذرياً. وعلى الرغم من محاولات تثبيت الصيغة القطرية واعتبارها الصيغة النموذجية المثلى، فإنها لا تلبي حاجات الناس الحقيقية. مفهوم القومية العربية كان، ولفترة طويلة من الزمن، مفهوماً بدائياً؛ إذ كان هناك تغليب لمصالح قطر معين على حساب أقطار أُخرى، كما كان ثمة انشغالات تُبعد المواطن عن همومه اليومية. فعلى سبيل المثال، كانت الانتخابات في سورية خلال فترة معينة تشغل تنظيم البعث في العراق إلى درجة الدخول في التفصيلات المحلية، بينما كان التنظيم في العراق يجهل حتى أبسط المسائل الخاصة بالمجتمع العراقي، ويتعامل معها كقضايا ثانوية. هذه صيغة غير مرضية وغير صحيحة، وخصوصاً أن كثيرين كان يستهويهم البديل القطري ويرون فيه حلاً معيناً. غير أن الممارسة على الأرض أثبتت أنه حل ناقص.

■ **هل تمثل الدولة التعددية واللامركزية أحد البدائل الممكنة؟**

□ أعتقد أننا بحاجة إلى بلورة مفاهيم جديدة لفكرتَيْ القطرية والمركزية، تتجه نحو صوغ جديد لما هو مشترك بين المفهومين ولما يمكن أن يؤدي إلى تناغم وانسجام بينهما.

■ **هل تعتقد أن ثمة جهة مؤهلة أكثر من غيرها للإمساك بالسلطة في العراق؟**

□ أنا أشك في أن يكون هناك قوى معينة، فالقوى تكاد تكون مكشوفة. وثمة عودة إلى الصيغ القديمة وإلى الانتماءات المذهبية أو العرقية، أكثر من الرؤية السياسية التي تعبر عن حقيقة مشاعر الناس وقناعاتهم. ولعل هذا يعود إلى القمع والعسف اللذين سادا فترة طويلة. غير أني لا أعتقد أن هذه الصيغ يمكن أن تنجح، أو أن تشكل بديلاً من نظام صدام حسين.

■ **هل أطراف المقاومة كلها وطنية ومحلية ولها برامج ورؤى محددة، أم أنها أصبحت موضع تجاذب القوى المحيطة بالعراق؟ فقسم من هذه المقاومة مرتبط بالخارج. هل سيصبح العراق – كما حدث في لبنان – بؤرة صراع دولية؟ هل عاد ما كان يسمى**

"المسألة الشرقية" يُلقي بظله الكئيب والمفزع على المنطقة من خلال البوابة العراقية؟

□ لا أعرف. أنا أتصور أن ثمة عنوانين كبيرين في المشرق العربي: الأول مصر، والثاني العراق. وأعتقد أنه لو قُيِّض للعراق أن يتعافى، وإذا استكمل بعض الشروط الأساسية التي تؤدي إلى قيام دولة أكثر حداثة مما كان عليه، أي من نواحي التعليم والديمقراطية والصناعة إلخ، أقول يمكن للعراق أن يؤدي دوراً مهماً. وكلنا يتذكر أن النهضة العلمية والنهضة العسكرية التي ابتدأت باكراً في العراق لا يوازيهما سوى ما كان يجري في مصر من ناحية قوة الأداء ومن ناحية القدرة على استثمار المناطق، وخصوصاً أن العراق يتمتع بإمكانات هائلة، سواء أكانت بشرية أم مادية، ويمكن للنفط أن يشكل عصباً مهماً في هذه النهضة.

أنا، شخصياً، أشك في أن تكون المقاومة مرتبطة بالخارج. ربما يكون هناك علاقات لأفراد، أو محاولات لإضفاء صفات معينة على المقاومة لإضعافها وإثارة الشبهات حولها. المقاومة نابعة من الشعب العراقي، ومن قواه الداخلية بالدرجة الأولى، ورهانها هو على هذا الداخل.

أمّا بالنسبة إلى "المسألة الشرقية"، فإنها طُرحت في أوضاع معينة كمحاولة لإيجاد صيغ تستوعب الاضطرابات والنزعات التغييرية التي كانت تجتاح المنطقة. كان ثمة إمكان آنذاك لإقناع بعض القوى. أمّا اليوم فقد تغيرت الأمور، ولا يمكن تغيير الخرائط إلاّ وفق أسباب مقنعة وقاهرة. أمّا لبنان فوضعه مختلف. العراق أقل البلاد طائفية؛ والعراق منذ ما قبل ثورة العشرين، وما بعدها أيضاً، شهد مواقف تعبر عن روح وطنية راسخة وشاملة. ونذكر فترة حكم نوري السعيد، على سبيل المثال؛ فعلى الرغم من قوته ومحاولاته المستمرة لإعادة تشكيل العراق وفقاً لرغباته ولمصالح الدول الأجنبية، فإن "وثبة كانون الأول/ديسمبر" (1948) كانت من ترتيبه، وهو من وفر لها كل عناصر النجاح، ثم جيء بصالح جبر كي يوقع المعاهدة. وعلى الرغم من كل الضغوط فإن المعاهدة لم توقَّع، الأمر الذي استوجب تأليف حكومة جديدة كانت هذه المرة بزعامة السيد محمد الصدر؛ وهو أمر مهم إذا قُرئ في سياقه.

■ **وهل سيبقى النفط في أيدي العراقيين (أي عراقيين؟)، أم آن لنا أن نعترف بأنه تمت السيطرة عليه؟**

□ أميركا لم تُبقِ شيئاً، وهي تتطلع إلى الاستيلاء على كل شيء. فهي متيقظة ومتوثبة، وهذا واضح من مناوراتها في مجلس الأمن في البحث عن قوى تغطيها وتشاركها في الاحتلال من دون مقابل. وأنا أرى أن الأيدي العاملة التقنية ومستوى التعليم والثقافة الموجودة في العراق، إذا تم تحديثها وأُحسن استخدامها، بالإضافة إلى الثروة المائية، تؤهله مجدداً لأن يحاول استعادة دوره وقوته. والمقاربة نفسها يمكن سحبها على مصر، وهي دولة عظمى في المنطقة ويعوّل عليها. ونلاحظ أنه حتى تكوين مصر وجغرافيتها

يؤديان إلى أن تكون ردات فعلها من نمط مميز.

■ **ألا تعتقد، دكتور عبد الرحمن، أن هذه الشرذمة الكبيرة قد تطال المنطقة بأكملها، وخصوصاً بلاد الشام، مؤدية إلى تغيرات غير محسوبة في طبيعة التركيب الجغرافي والإثني والديني والمذهبي؟**

□ في تقديري أن الولايات المتحدة تحاول أن تجد بؤراً أُخرى في سورية وإيران، وربما لبنان، من أجل أن تشتد الحاجة إليها في محاولة إطفاء الحرائق وتهدئة الأوضاع؛ أي أنها إذا اقتصرت على العراق تتعب!

■ **يبدو الآن كأن العراق يسير على طريق "اللبننة". هل الوضع العراقي المفتوح على المجهول قد يؤدي إلى "عرقنة" شرق المتوسط؟**

□ أعتقد أن الولايات المتحدة يهمها، إذا لم تستطع أن تصل إلى نتائج معينة في ضبط الوضع في العراق، أن توسع دائرة البيكار وفضاءه كي يمتد الحريق إلى ما يقتضي تدخلها هي بصورة خاصة، وتدخل آخرين، من أجل إعادة تشكيل المنطقة وترتيبها في صورة جديدة. نلاحظ، على سبيل المثال، أن السعودية موضع اهتمام أميركي أكبر جداً من السابق، وهي تضغط بشدة لإيجاد جو من أجل التغيير وإحداث شرخ جديد تهتز من خلاله الأوضاع. فيُحكى، مثلاً، عن إلغاء النظام الملكي، وعن تحفيز قوى جديدة تشارك في السلطة. والهدف هو الضغط على الوضع القائم من أجل تقديم تنازلات إضافية. وأرى أن "من يُكبِّر حمله ينوء تحته." غير أن هذا لا يؤدي إلى هوامش اختيار، وخصوصاً أن القيمين على السلطة اليوم في الولايات المتحدة، وهم جماعة صقور الليبرالية الدينية الجديدة، يعتمدون القوة المجردة في إخضاع الآخرين. اللافت للنظر، مؤخراً، أن الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، قال في خطابه في القوات المسلحة إن روسيا تمتلك سلاحاً كبيراً غير معروف ولا استخدم من قبل، وهذا يوجد نوعاً من التوازن الاستراتيجي.

■ **أعتقد أن هذا مجرد تعبير عن رغبة!**

□ ربما. لكن لا تنس أن العالم في حركة دائمة!

■ **العراق اليوم على "كف عفريت"، وهو معرض لمختلف أنواع العواصف والاحتمالات. ولعل عصب الحل يكمن في مدى قدرتنا نحن على المقاومة وعلى تقديم مشروع بديل؛ وبـ "نحن" أعني هنا العراقيين، أولاً وأساساً، بمختلف مجتمعاتهم وتجمعاتهم وجماهيرهم، وأعني ثانياً الدول العربية المحيطة جغرافياً بالعراق؛ وهذا متعلق، من جهة أُخرى، بدول الجوار، كما وعلى الأخص بالمشروع الإمبريالي الجديد متعدد الوجوه ومتغيّرها. دعنا ننظر، بدايةً، إلى الروابط والعلاقات التي تجمع بين العراق كدولة مركزية رئيسية على الخليج وبين إمارات الخليج وممالكه العربية. اليوم، الولايات المتحدة تبسط هيمنتها على مختلف هذه الإمارات والممالك، وتُقدِّم لنا دبيّ كمشروع تحديثي بديل، ربما هناك رغبة**

أميركية في تحقيق هذا النموذج في العراق إذا استطاعت مؤسساتها فرض نوع من السلطة المعينة في العراق. هذا إذا نجحت، بدءاً، في فرض تسوية ما في فلسطين. كيف ترى إلى هذه العلاقات؟

□ موضوع الخليج اكتسب أهميته في العصر الحديث من خلال المخافر التي أقامها البرتغاليون فيه كمراكز تموين ومراقبة، ومن أجل تأكيد وجودهم في وجه القوى الأُخرى. واستمر هذا الوضع فترة طويلة من الزمن؛ فللخليج أهمية، ولا سيما لموقعه الاستراتيجي في الطريق إلى الهند وشرق آسيا. وقد كرس اكتشاف النفط هذه الأهمية، وأكسبها أبعاداً جديدة. علاقة العراق بدول الخليج علاقة مد وجزر. ففي حقبة معينة كان للأسطول العُماني ذراع طويلة في قضايا الخليج، بما في ذلك السيطرة على البصرة. وكذلك الحال بالنسبة إلى السعودية، إذ خضعت العلاقات بها لعوامل المد والجزر، لناحية القبائل وتنقلاتها والامتداد الوهابي نحو الشمال؛ إلى أن جاء النفط فكرس صيغة معينة وجعل لها أطراً صلبة غير قابلة لإعادة النظر. فخلال فترة ترسيم الحدود في العشرينات والثلاثينات تُرك بعض المناطق محايداً أو مشتركاً لكون القبائل تتنقل بين ضفتي الحدود، أو على جانبيها، في مدى حياتي حيوي. وهناك مناطق أُلحقت نتيجة موازين القوى، وتبعاً لعلاقة الدويلات بمن يرسم الحدود. واستمر الالتباس بسبب الخوف من القوة والكتلة البشرية التي يمثلها العراق، وهو ما أدى بدول الجوار إلى أن تفترض وجود مطامع أو مطامح عراقية في هذه الدويلات؛ خوفٌ تحول إلى هاجس أنْ تقع يوماً ما فريسة للقوة العراقية. وكان للتحريض الاستعماري دور رئيسي في بذر الخلافات في فترات معينة. ونحن نذكر أنه كان يمكن تسوية الخلاف العراقي – الكويتي سنة 1991، والوصول إلى حلول مقبولة من كلا الطرفين، سواء فيما يتعلق بمسألة النفط، أو بالحصول على مرفأ للبحار العالية، أو حتى بالمسائل الخلافية الأُخرى. لكن يبدو أن الاستعمار، وخصوصاً الأميركي، وإلى حد ما الإنكليزي، دفع في اتجاه الصدام. من جهة أُخرى، بقي العراق، باعتباره الأكبر حجماً والأكثر رقياً وتحضراً، ينظر إلى دول الخليج باستعلاء؛ وهي نظرات مشوبة بكمٍّ من العيوب، فلم يتح لها أن تحرّض على إيجاد مناخ لتفاعل إيجابي. وهذه الحالة هي المهيمنة اليوم بتحريض من قوى كثيرة، وهي بحاجة إلى وقفة جريئة بحيث توضع أسس لمصالح مشتركة ونظرة جديدة مختلفة تؤمِّن نوعاً من التكافؤ والقبول بالآخر؛ ولا ننسى أن العراق يؤمِّن عمقاً استراتيجياً لإمارات الخليج، ويشكل نوعاً من الحماية لها، ويجنبها الخضوع لابتزاز الدول الاستعمارية.

أمّا بالنسبة إلى نموذج دبيّ، فللمصادفات التاريخية دور كبير في نشأة دبيّ؛ إذ هي عبارة عن محصّلة لأوضاع وأزمات تفاقمت في المنطقة. فانهيار مكانة بيروت، وتطور الأوضاع في الخليج، ساهما في استقطاب رؤوس أموال من أنماط معينة ساهمت في إنشاء دبيّ التي أدت دوراً متزايد الأهمية في تأمين حاجات المتحاربين وحاجات الدول التي

تمول الحرب. أعتقد أن هذا النموذج يمكن ضبطه في بلد مثل دبيّ، إلاّ إنه لا يمكن ضبطه في العراق، "وكر الأفاعي"؛ فلا أعتقد أن الأميركيين سيتورطون في هذا الموضوع. لعلهم يسعون لإقامة نظام رأسمالي منفتح، لكن بحدود. إن صيغ الرفاهية الظاهرية والاستهلاكية، والمعمار الضخم، ليست مقياساً للتطور، وهي أمور قد لا يمكن تكرارها على النمط نفسه، فلا حاجة ولا إمكان لأن يعاد نسخ نموذج دبيّ.

■ **لقد انتهى زمن الطروحات القومية الكبرى والشمولية، لنعترف! لقد فشلنا وأخفقنا إخفاقاً شديداً. ونحن الآن أمام منعطفات يمكن أن نستكشف فيها إمكانات جديدة. فهل يمكن استنباط إيجابيات من سلبيات هذا الاستعمار الجديد؟ [....]. هل يحرض الاستعمار الجديد على التغيير، وعلى الاندفاع نحو بداية جديدة؟ هل يمكن مقارنة هذا الاستعمار الجديد بـ "حملة نابليون" على مصر والشرق؟**

□ نابليون وصل إلى مصر مع فريق علمي هائل من العلماء والفنيين لمحاولة قطع الطريق الذي يصل بريطانيا بالهند؛ بمعنى ما، كان مُصلحاً يحمل رياحاً جديدة كان يمكن أن تؤدي إلى التغيير على الرغم من العنف والمآسي التي خلفها. هذه هي البذور التي بنى عليها محمد علي وسلالته، فانفتح على أوروبا، وجرى تغيير نوعي في مصر. ونذكر هنا محاولات إسماعيل باشا لإعادة تكوين القاهرة على مستوى التنظيم المدني وعلاقاتها بالإعمار. أمّا الأميركيون فهم يجتاحون المنطقة مثل هجمة تترية، يجهلون طبيعة المنطقة وتكوينها، ولا يملكون البدائل والرؤى الحقيقية سوى شعارات عامة تبشر بديمقراطية يضحّون هم أنفسهم بمبادئها. لقد غرق العراق في الفوضى واضطراب الأمن والعنف، إلخ. ونحن نرى أن مجلس الحكم محكوم من الأميركيين، وليس ثمة صلات وتفاعل مع سائر القوى يمكن أن تؤدي إلى تغيير نوعي. في الواقع أعتقد أن ثمة فارقاً كبيراً فيما يتعلق بالنظرة الاستعمارية الأوروبية وتلك الأميركية: أوروبا عندما كانت تستعمر، كانت تحمل معها ثقافتها ورؤاها وأبنيتها الدستورية أو الديمقراطية إلى المستعمرات، وخصوصاً فرنسا التي كانت تحاول تغيير هوية المدينة وثقافتها ولغتها، إلخ. الولايات المتحدة اخترعت العدو وضربته بقوة السلاح المتقدم تقنياً من أجل فرض وجهة نظر وحيدة وجامدة، من دون استطلاع رأي الناس وإشراكهم في صنع مصيرهم. ونراها تقدم يومياً على خطوات مبتسرة تتراجع عنها فيما بعد. انظر إلى تعاملها مع ما يمكن تسميته بحلفائها من العراقيين، أحمد الجلبي وغيره، كيف بدأوا وكيف هم الآن. وكذلك الشريف علي بن الحسين بدأ صديقاً للولايات المتحدة وجاء محمولاً على دبابتها، وصار الآن شبه خصم لها. وللشيعة أيضاً موقف من الأميركيين، ولهم مسافة منهم تتسع يوماً بعد يوم. أنا أرى أن الرياح الأميركية رياح سود، لن يُذكر منها إلاّ ما هو سلبي، وسيكون تأثيرها معاكساً لما هو مرغوب فيه.

■ **ألا ترى، دكتور عبد الرحمن، أولاً أن هذا الوضع الجديد هو حالة غير مستقرة ومفتوحة**

على آفاق وفرص لا نعرف عنها الكثير، وخصوصاً خارج العراق؟ ولا أدري إلى أي مدى ثمة وعي، حتى داخل العراق وبسبب القمع وبسبب تغييب العمل السياسي لفترة طويلة، لما آلت إليه أوضاع العراق اليوم. من الواضح أنه لن يتبلور واقع جديد بسرعة. ثانياً، لم تتضح حتى الآن عناصر المشروع الذي لم يجر صوغ أهدافه بوضوح والعمل عليه طوال الأعوام المئتين الأخيرة، والذي أضعنا فرص تطويره في الأعوام الأربعين المنصرمة. ما هي العناصر التي يمكن أن تؤسس لمشروع جديد في بلد مثل العراق، مشروع يستطيع أن يجمع ويستجيب لدواعي التعددية والاختلاف كما يستجيب للتغيرات في الواقع الثقافي وفي التعبير السياسي؟ ما الذي يجب أن يتغير في المشروع الذي أغواك وانخرطت فيه أنت في الخمسينات والستينات من القرن المنصرم؟

□ من الطبيعي أن الحركة السياسية هي عملية تراكم، ووضع رؤى للمستقبل، ومتابعة مراحل نضجها وإخفاقها وتحولها في مسارات جديدة. أنا أفترض أن بعض هذه العناصر لا يزال متوفراً. صحيح أنه لا يوجد أحزاب بالمعنى الحقيقي ما يؤدي إلى ممارسات فجة، حتى في تعبيراتها. هناك في العراق الآن نحو 35 صحيفة وحزباً، غير أنها ليست سوى مجموعات صغيرة لا تعبر عن واقع العراق. فلو أُتيحت فرصة لنوع من الممارسات الديمقراطية لاستطاعت أن تأخذ أشكالاً محددة كأحزاب سياسية جامعة، وأن تتخذ تعبيرات أُخرى على مستوى النقابات، مثلاً، والمجتمع الأهلي والصحافة؛ ولأمكنها أن تؤدي إلى نتائج عبر مسارات تراكمها وجدليات نمائها وتطورها. لكن ليس ثمة مناخات ملائمة؛ فالناس حتى الآن لم يستطيعوا أن يتفاعلوا مع الجو الجديد، أو أن يستوعبوه، أو أن يستفيدوا من إيجابياته. فنرى، مثلاً، أن التظاهرات هي أقرب إلى ردة الفعل والعداء منها إلى محاولة الوصول إلى مكاسب. كذلك نلاحظ، من خلال بعض المؤشرات، تفاوتاً كبيراً في طبيعة العلاقات داخل مجلس الحكم: وزير المالية أدلى قبل نحو أسبوعين بتصريحات في دبيّ تراجعت عنها الحكومة فيما بعد؛ عدنان الباججي، الذي كان يقول أنه لن يشارك في السلطة إلاّ عبر وسائل ديمقراطية تراجع عن كلامه واشترك. فالوضع مضطرب، ولم تظهر ملامحه كلها بعد. غير أن هذا لا يعني أنه سيبقى على ما هو عليه. كل مجموعة بشرية تجُري، بين فترة وأُخرى، نوعاً من المراجعة الذاتية ومن إعادة النظر في اللغة والخطابات بحيث تتمكن بعد فترة من إيجاد قواسم مشتركة جديدة. وكما ذكرت سابقاً، فعلى الرغم مما يبدو من أن الشيعة هم حالياً خارج إطار المقاومة الفعلية، فإن هناك نويّات أو مناخات ملائمة هي في طور التكوين والتبلور قد تؤدي إلى انخراطهم في الجو العام، ولا سيما أن الاحتلال يوجد أوضاعاً في غير مصلحته: حل الجيش والاستغناء عن كثير من الأجهزة دفعة واحدة، وهي أمور كان يمكن أن تكون مساعدة لهم فأوجدوا لأنفسهم مأزقاً إضافياً؛ التأخر في دفع رواتب الشرطة وطريقة توزيعها، مع ما استتبعه ذلك من خسارة عشرات القتلى والجرحى من أجل قضية فشلوا في التحكم في مفاعيلها بشكل صحيح؛ عدم

قدرتهم على ضبط الوضع الأمني. وعلى وجه الإجمال، هناك أمور كثيرة هي الآن في طورها الجنيني، أو في طور التكوين، ويمكن أن تنمو وتنضج بالتدريج. ولعل السلوك الأميركي هو عنصر مساعد في عمليات التطور هذه. كذلك فإن السلوك الأميركي تجاه الوسط والجنوب يختلف عما هو عليه تجاه الشمال؛ فالشمال أكبر حظوة وأكثر دلالاً، والأكراد أعطوا أنفسهم أكثر مما يجب.

■ **دكتور عبد الرحمن، تعلو أصوات في العراق باستمرار تدعو "العرب" إلى أن يتركوا العراقيين وشأنهم كي يقلعوا أشواكهم بأيديهم، وتطالب بأن يُقلع هؤلاء عن إعطاء الدروس والتنظيرات القومية الكبرى. الآراء العربية تمجد المقاومة عامة، وتهلل لها، بينما نجد أن الأصوات التي تصلنا من العراق تدعو إلى الحذر، وإلى إعطاء وقت أكبر وفرصة لاستيعاب الأوضاع والتريث في استقراء الآفاق المقبلة. يبدو أنه بدلاً من أن يكون الإطار العربي المحيط بالجانب القومي من هذه المسألة داعماً لفرص تغيير من هذا النوع، نراه لجوجاً وضيق الأفق أحياناً. فما تعليقك؟**

□ في تصوري أنه منذ وقت مبكر تم توجيه وضخ كمية كبيرة من الإعلام الدَّعَوي نحو العراقيين بما يفوق ما وُجّه إلى أي مكان آخر، ولعله مشابه لما كان يوجه إلى الاتحاد السوفياتي السابق. ولم يكن مصدر هذه الدعوات الإعلامية أميركياً فحسب، بل اشتركت في ذلك أيضاً إيران وكل القوى والجهات التي تسيطر على وسائل الإعلام، مثل الكويت والسعودية وقطر وغيرها، سواء أكان إعلاماً أم استخبارات، فخلقوا أجواء مسمومة. والأصوات التي تعلو محذرة العرب من الانخراط في المقاومة لا تعدو كونها مبالغات. فمن هم العرب الذين يقاومون؟ لعلك تجد بين كل ألف عراقي ثلاثة أو أربعة من دول عربية، إنما هي ذريعة للزعم أن المقاومة ليست عراقية. وفي تقديري أن هذه المقاومة عراقية محضة. فالتراث العراقي في المقاومة تراث عريق. لم يهدأ العراق يوماً منذ ثورة العشرين حتى سنة 1958 وما بعدها. كان هناك دائماً تمردات وعصيانات، وخصوصاً في العراق الأوسط. يضاف إلى ذلك أن عدم دخول الجيش في معركة حقيقية خلال الهجمة الاستعمارية الجديدة أدى إلى الاحتفاظ بالسلاح بين أيدي الناس. وللنَفَسِ العشائري دور مهم، وكذلك لطريقة الأميركيين في التعامل مع الواقع؛ كل هذه الأمور مجتمعةً هي ما يلهب المقاومة. أمّا فيما يخص طريقة الولايات المتحدة في التعامل مع موضوع المقاومة، فهي تعتبر أن كل خصم وكل مناوئ لسياستها هو مرتبط بـ "القاعدة"، أو محسوب عليها بنسبة ما، علماً بأن تكوين الـ "القاعدة" تكوين بدائي بحيث أنها عاجزة عن أن تقوم بهذا الدور. وأنا عندي قناعة – وهي بحاجة إلى مراجعة – بأن 11 أيلول/سبتمبر هو صناعة داخلية أميركية، أو على الأقل هُيّئت لها أجواء وأوضاع داخلية مكّنتها من أنْ تعبِّر عن نفسها بهذا الشكل. أُسامة بن لادن شخص بدائي لا تتعدى ثقافته كتاباً واحداً، وهو يقود مجموعة من العقول المتخلفة، فمن غير الممكن أن يستطيع الانتشار في العالم بهذا الشكل، وأن يسبب كل هذا

الضجيج، لو لم يكن هناك من يستغل هذه الحالة ويعمل على تكبيرها وإبرازها بحيث يعمل على خلق خصم محدد له ملامح مفترضة، تماماً كما كان يجري أيام الحرب الباردة حين كان يُعزى كل أمر إلى السوفيات وجواسيسهم، علماً بأن ثمة عوامل داخلية في كل بلد تفرز مثل هذه الظواهر وتؤدي إلى نمائها.

[.....]

فلسطين ـ العراق

■ **دكتور عبد الرحمن، هل لنا أن ننتقل إلى إضاءة على العلاقة بين فلسطين والعراق. العلاقة قديمة، وإذا نظرنا إليها ميثولوجياً فهي تعود إلى الجد الأعلى إبراهيم، ثم هناك علاقات لغة وجغرافيا وتاريخ واجتماع في العصور الإسلامية وفي ظل الدولة العثمانية. هذا وكان الشعر العراقي، والنجفي منه خاصة، قد تنبه مبكراً للخطر الجاثم في فلسطين فبكاها حتى قبل سقوطها في عبرات كربلائية تربطها بالأندلس الفردوس المفقود. ومنذ خمسينات القرن الماضي جرت الانقلابات كلها، في العراق وفي غير العراق، باسم فلسطين. وإلى فلسطين رنا الشعر العراقي الحديث، منذ السيّاب والبياتي وغيرهما. ومنذ عقود، منذ حرب الخليج الثانية، ارتبطت فلسطين بالعراق، بل ما زال هذان البلدان يتواصلان ضمن علاقة عريقة وغنية ومعقدة. هذا الجرح الفلسطيني النازف منذ قرن – والآن الجرح العراقي النازف أيضاً منذ نحو عشرين عاماً – وتأتي هذه الهجمة الاستعمارية الجديدة لتضغط على البلدين كطرفي كماشة تمسك بفلسطين على ساحل المتوسط وبالعراق على مياه الخليج، فكيف ترى إلى وضع فلسطين والعراق والعلاقة بينهما؟**

□ العلاقة بين العراق وفلسطين علاقة قديمة ومستمرة؛ ويعتز العراقيون بأن صلاح الدين هو الذي حرر بيت المقدس وردّ الصليبيين. والأجيال المعاصرة لديها شعور بأنها معنية بالقضية الفلسطينية وملتزمة تجاهها. وكذلك كانت الحكومات العراقية المتعاقبة – حتى نوري السعيد له كتاب في موضوع فلسطين – تعتبر أن فلسطين تعني شيئاً خاصاً في الوجدان العراقي، وإن اختلفت مواقفها وتفاوتت تبعاً لمدى علاقتها بالإنكليز وتأثيرهم فيها. هذا، وكان الجيش العراقي يُعدّ، منذ وقت مبكر، ليكون له دور تاريخي لا في العراق وحده بل على مستوى المنطقة أيضاً. مصر، على العكس من العراق، كانت تجتاحها خلال فترة معينة إمّا رياح أوروبية قوية وإمّا نوع من العزلة عن المنطقة العربية. وأول مرة جرى النص على عروبة مصر كانت في سنة 1954. العراق كان منتهياً من هذه المشكلة؛ فهو يعتبر نفسه أولاً عربياً وله دور عربي. ونذكر أن من جملة العوامل الأساسية التي أدت إلى اغتيال الملك غازي كان دعمه للقضية الفلسطينية. فالتصريحات التي أصدرها كانت تتناول موضوعين أساسيين: موضوع فلسطين، وموضوع الكويت. وكان للفلسطينيين المقيمين بالعراق حضور فاعل ومميز، ربما أكثر من أقطار أُخرى. أعني أنه كان هناك

شـبكة من الروابط والعلاقـات السـياسـية والإنسـانية، وكـان هنـاك عدد من المفكرين الفلسـطينيين أدى أدواراً مميزة في العراق. وأنا أعتبر أن المثقف الفلسـطيني جبرا إبراهيم جبرا كان من أبرز المثقفين العرب، بدءاً من الخمسـينات تقريباً حتى نهاية القرن. وقد أفرغ جهده وكرس اهتمامه ووقته من أجل إقامة روابط ونوع من العلاقة بين فلسـطين والعراق. كما سـاهم في تكوين الثقافة العراقية، ولفت النظر إلى أمور أسـاسـية كانت بمثابة نوع من الروافع لهذه الحالة الثقافية الجديدة. فمنذ الخمسـينات بدأ جبرا بالتأسـيس الثقافي من خلال ترجماته ومحاضـراته وتنظيره للشـعر الحديث. وسـاهم في إنشـاء جمعيات فنية وروابط استفادت هي أيضاً من التيارات والمدارس الحديثة وقدمت فناً عراقياً أنضج وأكثر نمواً من الدول المحيطة والمجاورة. هذه الأمور مجتمعةً هي من العوامل التي وثّقت هذه الرابطة الخاصة، وربما المميزة.

ومن جملة العوامل التي سـاهمت في إيجاد علاقات أكثر تعقيداً مع فلسـطين والعراق وجود جالية يهودية في العراق ضـاربة في القدم استمرت موجودة وفاعلة منذ أيام العصر العباسي. وحتى سنة 1949 كان كثير من المرافق الحيوية في العراق يدار من جانب يهود. وكـان لهم كثير من الإنجـازات أو المسـاهمـات المهمـة، ولا سـيمـا في إطـار الفن: الغنـاء والموسـيقى والفرق الفنية والتبشـير بأنماط معينة من الغناء. وأذكر صـالح الكويتي، على سـبيل المثال. ولعل أبرز الجوقات للموسـيقى والغناء العراقيين موجودة اليوم في إسـرائيل. إضافة إلى أنهم كانوا ينتمون اجتماعياً إلى طبقات مميزة نسبة إلى المجموع العراقي العام، وكان لهم دور فعال على الصـعيدين التجاري والاقتصـادي [....]. في الأربعينات وُجد مناخ لتسهيل هجرة اليهود إلى إسرائيل، وساهمت فيه حكومات متعددة في العراق. ومن المعروف أن العراق – مثل المغرب العربي – لم يكن لديه مواقف سـلبية تجاه المواطنين اليهود، فكانت تتاح لهم كل الفرص، وكانوا يشكلون عصباً قوياً في البلد [....].

إدوارد سعيد

■ **دكتور عبد الرحمن، دعنا ننتقل إلى الموضوع الفلسطيني. إلى ما سيؤول في ظل الهيمنة الأميركية العسـكرية المباشـرة على المنطقة، وفي ظل العنف الإسـرائيلي منقطع النظير والشـراسـة الإسـرائيلية؟ هل ثمة أمل من "خريطة الطريق"، ومن الاسـتمرار في حل سـلمي وتحقيق إنجازات؟ وهل المصير هو في وجود دولتين متجاورتين: واحدة فلسطينية وأُخرى إسرائيلية، أم في وجود دولة ديمقراطية واحدة؟**

□ في ظل الوضع الحالي لهيمنة الولايات المتحدة الأميركية والأدوات التي أوجدتها امتداداً لهذه الهيمنة، أتيحت لشـارون الصـيغة النموذجية للتعامل مع دول المنطقة. فالولايات المتحدة، في كثير من الأحيان، تسـتخدم إسـرائيل من أجل إخضـاع هذه الدول، والشـهية الإسـرائيلية مفتوحة على أي حال إلى أقصـى حد. من هذا المنظور لا يمكن لدول المنطقة أن

تقر بالصيغة التي يراد فرضها. صحيح أن التفاوت كبير جداً فيما يتعلق بموازين القوى، وأن الرخاوة العربية تحاول التنصل من أي مسؤولية؛ هذه الأمور، كلها، تأتي في مصلحة الهيمنة الأميركية. غير أن موازين القوى لم تكن يوماً شيئاً أبدياً وثابتاً. ولو كان المناخ العربي أكثر فاعلية وتفاعلاً مع الفلسطينيين لكان أمكن تأمين حد أدنى من التوازن، لا على صعيد الأسلحة والجيوش، وإنما لحشد تأييد عربي من أجل حماية الحقوق الفلسطينية. ونلاحظ أن الانتفاضة، بإمكاناتها المحدودة والبدائية، استطاعت أن تكبد إسرائيل كماً غير قليل من الخسائر ومن العجز عن المواجهة.

■ **تعني العمليات "الاستشهادية"؟**

□ لا، أعني المقاومة، والاستمرار، وهذا النفس الشعبي الطويل. أنا شخصياً لا أؤيد العمليات الاستشهادية وأعتبرها، في بعض الأحيان، حجة إضافية لدى إسرائيل والولايات المتحدة من أجل تنفيذ سياساتهما المعادية.

■ **حتى لو تم إيجاد قاسم مشترك يمثّل نوعاً من المنطلق لتحقيق حد أدنى لمشروع وطني فلسطيني وأتت هذه العمليات لتحفز هذا المشروع وتنهض به؟**

□ لا شك في أن بعض العمليات مفهوم ومبرر ويؤدي إلى مردود إيجابي. لكن بوجه الإجمال عندما توجه ضد المدنيين وتأتي كردات فعل عمياء، فإنها تعطي نتائج معاكسة. وحتى أوروبا، التي كانت تميل إلى التعامل مع القضية الفلسطينية بنوع من الإيجابية والانفتاح، بدأت مراجعة حساباتها نتيجة الضغط الأميركي – الإسرائيلي، وكرد على هذه العمليات الدموية غير المبررة في كثير من الأحيان. لقد تراجع الحوار مع القوى التي تدعو إلى السلام في الجانب الإسرائيلي لأننا لم نستطع الاستمرار في حوار جدي ومتكافئ؛ فالمشكلة أولاً وأخيراً، كما يقول إدوارد سعيد، هي مشكلة بين الشعبين.

[.....]

■ **كان لإدوارد سعيد موقف يدعو إلى دولة ثنائية الهوية القومية، فما رأيك في هذا الطرح؟**

□ لا شك في أن إدوارد كان أحد أبرز من استطاع أن يقرأ المرحلة بعناصرها الأساسية واحتمالاتها من دون انفعالات كبيرة، وبعقل ناقد ومتطور، وانطلاقاً من ثوابت أساسية حرص على تطويرها ومحاورة الآخر بها لإيجاد أرضية مشتركة يمكن الانطلاق منها. لعل الاقتراح الذي توصل إليه في النهاية اقتراح معقول، لكن الأمر يتوقف على مدى قدرتنا على إقناع الآخر وتهيئة الظروف لاستقبال هذا الطرح. في وقت سابق كانت جهات معينة في المقاومة الفلسطينية طرحت صيغة "الدولة الديمقراطية ثنائية القومية". غير أن هذا الشعار لم يبق مركزياً في طروحات المقاومة الفلسطينية، ولم تجر متابعته، فتراجع أو سُحب من التداول، ليظهر لاحقاً عدد من المشاريع التي تداخلت إلى حد أنها غيّبت أي رؤية واضحة. لا شك في أن إدوارد الذي عاش في مركز صنع القرار، وفي نيويورك بالتحديد،

القلعة الكبرى للصـــهيونية، كان له دور رئيســـي في تقديم الموقف الفلســـطيني وشـــرحه والتعبير عن التعقيدات في ســـائر جوانبه. وقد فهم إدوارد طريقة صـــنع القرار في المركز الإمبريـالي، كمـا كـانت لـه علاقـات بعدد من الإســـرائيليين واليهود المنفتحين. علينـا نحن اليوم أن نطور هذه الفكرة ونؤطّرها لتصبح مركزية ومقبولة.

[.....]

المثقف ودوره

■ لإدوارد ســـعيد كتابات في المثقف الحديث ودوره، وقد قرن الفكر والتنظير بالممارســـة اليومية عبر وقفات صلبة في وجه مؤسسات المركز الإمبريالي، وكان ناقداً جريئاً للسلطة الفلســـطينية ولأنظمة العســـف. ولك أنت، دكتور عبد الرحمن منيف، آراء مهمة في المثقف ودوره، وذلك في كتابك "بين الثقافة والسياسة"، الصـادر سنة 1998 (وصدر مؤخراً في طبعته الثالثة). بغياب المثقف والثقافة تتهاوى المناعة الاجتماعية ويسـهل السـقوط، كأن ثمة ترابطاً بين مواقف المثقف والثقافة ونظام القيم الإنســـانية. كيف ترى إلى دور المثقف العراقي والعربي اليوم في ظل هذه الهجمة، وفي ظل الإخفاق الذي وصـــلنا إليه ونتحمل نحن مســـؤوليته كمجموعة مجتمعات؟ ما هو دور المثقف في العراق، والمثقف العربي على وجه الإجمال؟

□ هذه إحدى القضايا المهمة التي يجب أن يدور في شأنها حوار واسع ومتعدد الأبعاد. لقد كان للمثقفين في مطلع القرن العشرين حضور كبير ومساهمات مهمة. وأبرز من يأتي إلى الذاكرة الآن هو طه حســـين. كان مثقفاً من نمط خاص إذ لم يكن موضـــوع الثقافة، وخصوصاً النظرية، همه الوحيد. لكنه أولى العلاقة بين المثقف والجماهير عناية كبرى من ناحية إتاحة التعليم للطبقات الفقيرة، ومجانية التعليم، ومن خلال الربط بقضايا المجتمع الأساسية، كالصحة والمواصلات إلخ. ويمكننا أن نجد مثقفين آخرين أدوا أدواراً مماثلة. كما كان للشـــعراء دور رائد نظراً إلى أهمية الشـــعر وموقعه في الثقافة العربية. ونذكر على سبيل المثال الزهاوي، الذي كان صاحب مشروع يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي؛ وكذلك الجواهري الذي كان الصـــوت النابض باســـم الجماهير وباســـم الثورة، ومثّل التحدي الذي يتميز به الشعب العراقي تجاه السلطة، أياً كانت. وفي مرحلة لاحقة برز دور الصـحافيين، وتبعهم الروائيون. إلى جانب هذه المجموعات، وبشـكل موازٍ لها، نشـأت الأحزاب؛ فصـار الحزب السياسي أقوى من الأشخاص كأفراد أياً تكن صفاتهم ومواقعهم. وغدا دور المثقف يكبر عبر اقترابه من الحزب السياسي، ومساهمته في تعزيز وضع هذا الحزب. لكن المعادلة بدأت تختل منذ فترة من الزمن، بحيث أصبح المثقف جزءاً من الحزب السياسي وامتداداً له، وخصوصاً عندما أمسك الحزب بزمام السلطة وعمل على لجم المثقف. فولاء المثقف للحزب الســـياســـي، وتمثيله لهذا الحزب، حوّلاه بالتدريج إلى شـــخص فاقد لحريته الفكرية وللدور

المنوط به من جانب المجتمع، في مقابل زيادة في الكم الإعلامي في ممارساته. فالحزب السياسي كان، في الدرجة الأولى، بحاجة إلى إعلاميين أكثر مما كان بحاجة إلى منظّرين، لأنه يعتبر أن الزعيم السياسي هو المنظر الأكفأ – والمفترض أن يكون الوحيد. وقد أصبح قادة الأحزاب السياسية هم الذين يمارسون التنظير، وتبرير المواقف السياسية، وتقديم القراءات في مرحلة معينة، بينما أصبح مطلوباً من المثقف أن يقتصر على الدور الإعلامي مبرِّراً ومفسِّراً لما يريده السياسي. واستمر هذا الوضع إلى أن تكشفت الأحزاب السياسية عن مقدار كبير من الخواء، ولم تعد قادرة على ملء هذا الفراغ بطروحات جدية ومعرفة حقيقية بتكوين المجتمع وبعناصره المتداخلة، وهو ما أدى أيضاً إلى فترة انحسار بين عدد كثير من المثقفين والأحزاب السياسية. وكنتيجة لفشل كثير من الأحزاب السياسية، وعجزها عن القيام بأدوارها الحقيقية، بدأ يترسخ وهم جديد لدى المثقف معتقداً أنه هو البديل من الحزب السياسي، وبدأ يطالب بدور أكبر، وبنوع من الاستقلالية الكاملة، وحتى بمشروعية المعارضة والتصدي للأحزاب السياسية.

[.....]

■ **يبدو لي أنك ما زلت تجد مكاناً للحزب السياسي الأيديولوجي في المرحلة المقبلة. اليوم هناك اتجاه أكبر نحو المثقف التقني، الذي يقدم خدماته بغض النظر عن الأيديولوجيا. وثمة كثيرون من المثقفين العرب الذين قدموا خدماتهم للتحالف الأنكلو – ساكسوني الاستعماري الجديد في العراق. هل ما زال هناك دور للمثقف الذي ينتمي أيديولوجياً، أو يقترب من أيديولوجيا معينة، أو من حزب معين، أو حتى من الدولة، علماً بأنه لم يبق من مؤسسات الدولة في منطقتنا سوى مؤسسات الجيش والشرطة والسجن؟ إذا استشرفنا المستقبل قليلاً، هل سيظهر لدينا هذا التحول بنموذج المثقف، هل ما زال في إمكاننا تسميته "الملتزم" أو "العضوي" في المرحلة المقبلة؟**

□ بصراحة أنا لا أكن الثقة ولا التقدير للمثقف التقني. فالمثقف نبتة تنمو في أوساط شعبه. ليس من الضروري أن يكون أيديولوجياً، لكن يجب أن يحافظ على علاقة بالجماهير وبمشكلات بلده وقضاياه. نحن بحاجة إلى مثقف من نمط جديد، لديه ثوابت والتزامات تجاه القضايا الوطنية، كما هو الأمر بالنسبة إلى كثيرين من مثقفي أوروبا؛ فهم غير منتسبين إلى أحزاب، لكن لديهم مواقف وقراءات، ويبدون رأيهم في القضايا المهمة. أما نحن، فيبدو أن مثقفنا دخل حيّز الاختصاص الذي يؤدي بالنتيجة إلى خدمة صاحب رأس المال؛ ومن هنا نلاحظ أن كثيرين من الذين كانوا يدّعون الحياد، أو عدم الرغبة في العمل السياسي، أصبحوا عملياً في الجانب الرجعي.

[.....]

■ **ما زلت تنظر إلى الأمور من منظور دور الحزب والأيديولوجيا!**

□ لا أبداً. لكن مهما علا شأن المثقف وأهميته فهو لا يستطيع أن يغير المجتمع. من يُفَعِّل

التغيير هو الناس، ومن ينظِّم الناس ويُفَعِّل أداءهم الاجتماعي هو التنظيم أو الحزب، وليس الحركة العشوائية العمياء وإنما حركة واعية ومنفتحة. من هنا أحب أن أؤكد أنني لا أتحدث عن الأيديولوجيا، ولا عن تنظيم حزبي معين. يجب أن ننتهي إلى نتيجة، وهي أنه إذا أردنا أن نقيم علاقة من نمط جديد فيجب أن يكون هناك احترام متبادل بين السياسي والمثقف، وتناغم بين دوريهما في الحياة العامة. السؤال هو: كيف يمكن للمثقف أن يمتنع من أن يكون أداة إعلامية مسخّرة في يد السلطة، وأن يحافظ على استقلاليته وموقفه النقدي، وأن يكون قادراً على قراءة الواقع وتقديم تحليلات في شأنه واستشفاف رؤى للمستقبل قد تختلف عن تقدير السياسي المشغول بالهموم اليومية وبالحسابات الانتخابية والسياسية وما شابهها؟ وفي الآن نفسه، يجب أن يقر السياسي بضرورة وجود المثقف، وبدوره، وبأهمية هذا الدور. لاحظنا في التجربة الشمولية للاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية أنه لا يمكن وضع المثقف في قفص، أو إرغامه على اتخاذ مواقف معينة.

[.....]

الرواية وهمومها

■ أتسمح لنا بأن نضم أطراف مَحاوِر هذا اللقاء بسؤال أخير: كيف ترى إلى دور الرواية العربية اليوم، وماذا تقول للروائيين الجدد؟

□ في البدء، أجدني من المتحمسين لفتح الآفاق والصلات بين مختلف وسائل التعبير. فأنا لا أستطيع أن أرى إلى رواية متقدمة إذا كانت مستقلة عن وسائل التعبير الأُخرى. وقد انحسر بعض الحالات الثقافية المتقدمة التي شكلت في مرحلة معينة إضاءات ومحطات دفع، وذلك بسبب غياب المسرح وتراجع السينما وعدم حضور الفن التشكيلي بقوة. ففتح وسائل التعبير بعضها على بعض، وتفاعلها، واستفادتها من بعضها البعض، قضية مهمة إلى أقصى حد، ولا سيما أننا نعيش اليوم مرحلة تعقّد العلاقات المدينية والتطور المتسارع الوتائر في بنى المجتمع. ولذلك غدت الحاجة أكبر من أي وقت مضى إلى وسائل كشف وسبر إضافية. ولعل الرواية – نتيجة الحاجة – هي وسيلة من هذه الوسائل. وبالتالي، فالرواية لم تعد مجرد سحبات خيالية، وإنما غدت تؤسَّس على معرفة بالمجتمع وبمختلف فضاءاته. ولا أتصور أن تنجح الرواية من دون فهم البنى الاقتصادية والاجتماعية ومن دون معرفة، ولو بسيطة، بعلم النفس. فالروائي الذي يجلس بمعزل عن الناس وعن الحياة اليومية، مهما يكن بارعاً، يخرج برواية شعرية لها نمط معين، ممكن أن تكون قوية في التعبير بالصور وبالدلالات الخاصة، لكنها لا تتناول المجتمع ولا الحياة بصخبها وتناقضاتها ومشكلاتها وهمومها. والرواية أصبحت هي القاطرة التي تشد الثقافة العربية في المرحلة الحالية. وما زالت هذه القاطرة في بدايات انطلاقتها، وما زال أمامها فرص غير محدودة من أجل أن تتطور وتنمو وتجرِّب. على أن همّ الروائي يجب ألاّ يكون شكلياً فحسب، بل مركباً أيضاً.

فبمقدار ما أنا مهتم باللغة كصيغة تركيب، أجدني أهتم أيضاً بالموضوع، وبالمرحلة التي أعمل عليها، وبالقوى والعناصر التي أتوجه إليها. طبعاً المتعة ضرورية؛ فأنا شخصياً أتمتع بكتابة الرواية، إلاّ إن متعتي هي في أن أقدم عملاً ناضجاً مشغولاً بهدوء، تماماً مثل الحرفي الذي ينسج بغزل ناعم.

وأود أن أشير هنا إلى عدد كثير من الروايات التي تحاكي الغرب في صرعاته النابعة هناك من التطور الذي بلغه الغرب، ومن منظومة فكرية وجمالية لها ركائزها هناك. مع الأسف، يحدث أحياناً أن بعض الروايات يُكتب لإظهار البراعة ومتعة اللعب اللغوي والشكلي، عبر تقليد مباشر لبعض الاتجاهات الغربية. أو أن تغرق روايات أُخرى في لعبة الغرابة من أجل إدهاش القارئ الغربي، وكي تُترجَم الرواية إلى لغات أوروبية؛ فبعضهم يكتب وعينه على المترجم، وبالتالي ترى أنه حتى الصداقات بين الروائيين والمترجمين أصبحت مشبوهة [....].

[.....]

■ **ما رأيك في الرواية اليوم؟ وهل قرأت روايات جديدة أثارت اهتمامك؟**

□ لا يخلو الأمر. غير أني لا أتابع بدقة كافية كل ما يصدر بسبب وضعي الصحي الخاص. لكن لفت نظري بعض الروايات المصرية واللبنانية، وتوقفت عند بعضها وقفات إعجاب وتأمل. مثلاً: "يالو" لالياس خوري، و"عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني، و"ليالٍ أُخرى" لمحمد البساطي. كما أحببت العمل المشترك لرفعت الجادرجي وبلقيس شرارة "جدار بين ظلمتين"، وأعتبر هذا العمل إضافة نوعية إلى الرواية العربية. فكتابهما نوع من انفتاح الرواية على الفنون الأُخرى، وهو يجمع النَفَس الروائي على الذكريات والكتابة الوقائعية إذا صح التعبير؛ وذلك من منظورين ومن زاويتين. فهذه الرواية نوع من الحوارية التي تفتح أبواباً للتواصل والاكتشاف. وأنا أتصور أنه ما زال أمام الرواية العربية أشواط متعرجة. وأعني في هذا أنها ممكن أن تتقدم، أو أن تقف في مكانها. لا أظن أنها ستتأخر لأنه أصبح هناك علامات ثابتة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

[.....].■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf